صورة من شعر الفتوحات

للشاعر: شهاب الدين محمود الحلبي ٦٤٤هـ - ٧٢٥هـ

في فتح عكة ٦٩٠هـ

إعداد

دكتور/ محمد حسن عبد اللطيف علي

مدرس الأدب والنقد - كلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

تستريح النفس دوما لكلمة الفتح لما تدخله من سرور عليها ، ولذا ذكر العليم الخبير سبحانه وتعالى هذه الكلمة مبشرا بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم والذين معه حيث قال .

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا »(١) ، وقوله سبحانه : « فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا »(٢) . وقوله تعالى مطمئنا المسلمين وهو أعلم بما يدور بخلدهم من حب لمكة التى أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين »(٣) .

هذا ولمكانة الفتح أفرد بسورة فى القرآن الكريم مسماة باسمه ، ولمكانة الفاتحين عند ربهم أنزلوا منزلة أسمى من غيرهم الذين أبطأوا عن السابقين حيث قال تعالى فيهم .

« لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعـــد الله الحسنى والله بما تعملون خبير »(٤) .

وقد من الله على المؤمنين بفتوحات كثيرة منها :

فتح « مكة » ٦٩٠ هـ . بعد غربة عن سلطان المسلمين رازحة تحت نير أهل الصليب تتجرع الصبر كئوسا مترعة .

وحرى بنا ونحن نعرض لهذا الفتح بالدراســـة والبحث أن نقف على نقاط تاريخية بقدر ، كى يبدو البحث فى ثوب قشيب ، إذ لايتصور أن يرقى بحث مثل هذا دون معرفة :

---

(١) سورة الفتح الآية ١ .
(٢) سورة الفتح الآية ١٨ .
(٣) سورة الصف الآية ١٣ .
(٤) سورة الحديد الآية ١٠ .

عكة ، وقائد فتحها ، والشاعر الذى جلى براعة بالقصيدة التى تبرز لنا هذا الفتح العظيم .

عكة :

تلك المدينة المشهورة على ساحل البحر الأبيض فى فلسطين(١) وبالرجوع إلى معاجم اللغة والبلدان تبين أنها « عكة » بالتاء ، وحسبى دليل على ذلك قول صاحب لسان العرب ابن منظور (... وعكة : اسم بلد فى الثغور ، وفى الحديث طوبى لمن رأى عكة)(٢) .

وقول صاحب معجم البلدان ياقوت الحموى : « وعكة بفتح أوله وتشديد ثانيه ، قال أبو زيد : العكة : الرملة حميت عليها الشمس ، وقال الليث : العكة من الحر الفورة الشديدة فى القيظ وهو الوقت الذى تركد فيه الريح وهى (عكة) بلد على ساحل بحر الشام(٣) .

عكة والتاريخ الإسلامى :

فتحت عكة فى حدود سنة ١٥ هـ على يد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان وكان لمعاوية فى فتحها وفتح السواحل أثر جميل . وكانت بيد المسلمين حتى أخذها الأفرنج من زهر الدولة بناء الجيوشى منسوب إلى أمير الجيوش بدر الجمالى أو ابنه وكان بها من قبل المصريين ، فقصدها الأفرنج برا وبحرا فى سنة ٤٩٧ هـ ، فقاتلهم أهل عكة حتى عجزوا عنهم ... فسلموها

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٥٢ فتوح البلدان للبلاذرى نشر فهرسة د/ صلاح المنجد ط لجنة البيان العربى ١٩٥٧ م .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٠٥٩ مادة عكك لسان العرب ط دار المعارف .

(٣) راجع ٤ ص ١٤٣ معجم البلدان ط بيروت ١٩٥٧ م .

إليهم ! ولم تزل فى أيديهم حتى افتتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب فى جمادى الأولى ٥٨٣ هـ ، فعاد الأفرنج ونزلوا عليها وخندقوا دونهم خندقا ، وحاصرهم صلاح الدين ونزل دونهم وأقام حولهم ثلاث سنين حتى استعادها الأفرنج من المسلمين عنوة فى سابع جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ(١) .

وباتت فى أغلال الأسر حتى عام ٦٩٠ هـ ، ذلك العام الذى كسرت فيه الأغلال وأطلقت من قيود الأسر الصليبى بعودتها إلى حظيرة الإسلام كما يقول ابن كثير :

« ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة فيها فتحت عكة ، فيسر الله فتحها نهار جمعة كما أخذتها الفرنج من المسلمين فى يوم الجمعة(٢) .

وذلك فى السابع عشر من جمادى الأولى بعـــد حصار دام أربعة وأربعين يوما(٣) .

فاتح عكة :

لقد عادت عكة مرفوعة الجبين على يد قائد شجاع ينحنى له التاريخ إجـــلالا ذلكم هو « خليل بن قلاوون ، السلطان ، الملك الأشرف ، صلاح الدين ، ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى ، جلس على تخت الملك فى ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ، واستفتح الملك بالجهاد ، وسار فنازل عكة وافتتحها ... ولو طالت مدته ملك العراق وغيره ومات

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٤٣ – ١٤٤ معجم البلدان .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣١٩ – ٣٢١ البداية والنهاية فى التاريخ ط السعادة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٧٦٤ – ٧٦٥ السلوك لمعرفة دول الملوك – للمقريزى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ م .

مقتولا(١) فى المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وكان من أبناء الثلاثين أو أقل ـ رحمه الله تعالى ـ ومن فتوحاته :

عكة وصور وصيدا وبيروت .

وكانت مدة ملكه ثلاث سنين(٢) وشهر وخمسة أيام(٣) .

من قول الشعراء فى عكة :

لاغرابة أن يشارك الشعراء بلسانهم كما شارك الجند بسنانهم فى فتح « عكة » ، متأسين فى ذلك بشعراء صدر الإسلام من أمثال: حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة ، الذين زادوا عن رسول الله ، صاغية أذانهم إلى رغبته عليه الصلاة والسلام فى الدفاع عنه باللسان .

وتبدو هذه الرغبة فى وصف أبى الفرج الأصفهانى لهذا الدفاع البيانى قائلا: « روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : : أنا لها . وأخذ بطرف لسانه وقال : والله مايسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ، فقال كيف تهجوهم وأنا منهم ؟

قال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين ... إلخ(٤)

من هذا الباب ولج الشعراء يذودون عن عكة بقريضهم .

(١) على يد نائبه الأمير بندار .

(٢) وفى النجوم الزاهرة : ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠٤ فوات الوفيات تحقيق محمد محيى الدين ط النهضة المصرية ، جـ ٥ ص ٤٢٢ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ط بيروت ، جـ ٨ ص ٢٧ النجوم الزاهرة ط المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة .

(٤) راجع جـ ١ ص ١٣٧ مهذب الأغانى (تهذيب الخضرى) ط مصر .

من ذلك ماروواه المقريزى قائلا : اتفق أن الشيخ شرف الدين اليوصيرى رأى فى منامه قبل أن يخرج الأشرف إلى عكة قائلا ينشده :

قد أخذ المسلمون عكا ... وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم ... خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ... لاتتركوا للفرنج ملكا

فأخبر بذلك جماعة ، ثم سار الأشرف بعد ذلك وفتح عكة .

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى ذلك :

يابنى الأصفر قد حل بكم ... نقمة الله التى لاتنفصل
قد نزل الأشرف فى ساحلكم ... فابشروا منه بصفع متصل

* * *

وقال ابن ضامن الضبع بعكة :

أدمى الكنائس إن تكن عبثت بكم ... أيدى الليالى أو تغير حال
فلطالما سجدت لكن فوارس ... شم الأنوف جحاجح أبطال(١)
فعزاء عن هذا المصاب فإنه ... يوم بيوم والحروب سجال
هذا بذاك ولا نعير دهرنا ... ولكل دهر دولة ورجال(٢)

* * *

هذا وللشاعر شهاب الدين محمود الحلبى القدح المعلى فى فتح عكة ولامغالاة إن سميناه شاعر عكة ، كما سمينا الأشرف خليل قائد عكة وفاتحها ولذا يحلو لى أن أسميه قائد عكة الشعرى ، كما كان الأشرف قائدها العسكرى .

---

(١) جحاجح : جحجح وهو السيد ، ويجمع على جحاجيح وجحاجحة راجع ج ١ ص ٢١٧ القاموس المحيط .

(٢) راجع ج ١ ص ٧٦٦ ، ٧٦٧ السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ م .

هو شهاب الدين محمود بن سلمان[1] بن فهد العلامة ، البارع البليغ ، الكاتب ، الحافظ كنيته أبو الثناء ، كان مولده بدمشق سنة أربع وأربعين وستمائة ، وتوفى سنة خمس وعشرين وسبعمائة بدمشق ، تأدب على يد ابن مالك ولازم الشيخ مجد الدين بن الظهير وسلك طريقته فى النظم وأربى عليه ، ونقله الوزير شمس الدين بن السلعوس إلى مصر وتقدم ببلاغته وبديع كتابته وإنشائه ، وأقام بمصر إلى أن توفى القاضى شرف الدين بن فضل الله . فجهز إلى دمشق صاحب ديوان إنشائه ، فأقام على المنصب ثمانية أعوام ، وتوفى رحمه الله تاركا من التصانيف : مقامة العشاق ، وكتاب منازل الأحباب ، وحسن التوسل وأسنى المنائح فى أسنى المدائح[2] ، وكان ممن أتقن الفنين المنظوم والمنثور[3] .

قصيدة شهاب الدين محمود الحلبى

سجل الشاعر هذا الفتح فى قصيدة بائية تبلغ ثلاثة وستين بيتا ، قيل عنها فى إبانها « البائية المشهورة »[4] وقال عنها د . محمود رزق سليم :

« وكأنى به (شهاب الدين الحلبى) يعارض بها (بقصيدته) أبا تمام[5]

(١) وفى شذرات الذهب جـ ٦ ص ٦٩ ط بيروت أنه (محمود بن سليمان) وفى النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ٢٦٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر أنه محمود بن سلمان أيضا .

(٢) فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وتبلغ عدتها ٢٣٦٥ بيت . [خمسة وستين وثلثمائة وألفى بيت] .

(٣) راجع حـ ٢ ص ٥٦٤ - ٥٦٥ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط النهضة ١٩٥١ .

(٤) راجع حـ ص ٣٠٥ - ٣٠٨ فوات الوفيات ، ط النهضة .

(٥) أبو تمام : حبيب بن أوس الطائى الشاعر المعروف - المولود بقرية جاسم - من أعمال دمشق فى سنة ١٩٠ هـ ، والمتوفى بالموصل فى سنة ٢٣١ هـ راجع جـ ١ ص ٦-٨ ديوان أبى تمام شرح محمد محي الدين ط المدنى .

فى فتح عمورية ،[1] وهى « بلدة أرض الروم (تركيا اليوم) شهرت بفتح المعتصم العباسى لها[2] والتى يقول فى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب[3]

فكلا الشاعرين صاغ قصيدة فى تصوير فتح إسلامى ابتهجت له قلوب المسلمين ، فاستنقاذ (عكة وعمورية) من براثن الروم والصليبيين (والقوم قديما وحديثا صليبيون تفيض قلوبهم حقدا على الإسلام) على يد الأشرف خليل والمعتصم[4] ألهم الشاعرين ذوى العاطفة الإسلامية الجياشة أن يقدح كل منهما زناد فكره معبرا عن فرحته بنصر الله وفتحه لهذين البلدين اللذين عادا من ذل الأسر إلى عز الإسلام كما كانا تصدع بالأذان مآذنهما بعد صلصلة الأجراس ودق النواقيس ، الأمر الذى جعلنى أؤيد بعد نظر وإعمال فكر من ذهب إلى معارضة شهاب الدين الحلبى لأبى تمام فى بائيته معضدا ذلك بالبرهان والدليل فيما سأعرضه . فقد وقفت على اقتباس شهاب الدين الحلبى من أبى تمام بعض الألفاظ والعبارات ، مثل قوله فى مطلع بائيته :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى

مقتبسا من أبى تمام قوله :

لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم تخف ماحل بالأوثان والصلب

---

(١) راجع حـ ٨ ص ٥١ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ط الآداب.

(٢) راجع حـ ٣ ص ٧٥٣ فتوح البلدان للبلاذرى تحقيق د/ صلاح المنجد ط لجنة البيان العربى .

(٣) راجع القصيدة حـ ١ ص ١٥ - ٢٩ ديوان أبى تمام شرح محيى الدين ط المدنى.

(٤) هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد ولد بزبطرة سنه ١٧٩ هـ بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ ، وتوفى سنة ٢٢٧ هـ بمدينة (سامرا) سر من رأى - بعد حكم دام زهاء تسعة أعوام راجع حـ ٣ ص ٣٦٤ فتوح البلدان، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ الدولة الأموية والعباسية وحضارتهما د . محمد الطيب النجار ، د . محمد مصطفى النجار ، ط مكتبة الجامعة الأزهرية .

واللفظ المشترك هنا (الصلب) والمعنى غير خاف وهو الصغار الذى حل بدولة الصليب شعار الروم قديما والأوربيين الذين تستروا وراء الصليب حديثا - إثر هذين الفتحين .

٢ - وقول شهاب الدين الحلبي:

وأطلع الله جيش النصر فابتدرت طلائع النصر بين السمر والقضب(١)

مقتبسا من أبي تمام قوله :

لو يعلم الكفر من أعصر كنت له العواقب بين السمر والقضب

وهنا نجد لفظى (السمر والقضب) مشتركين .

والمعنى المراد فيما أراه لكلا الشاعرين : (أن الله سبحانه وتعالى أيد الجيش الإسلامى فى (عمورية وعكة) بجنود لاقبل للكفار بها ، مدججين بسلاح روحى وهو الإيمان فى القلوب - وهذا لانظير له لدى جند الصليب. ومدججين بسلاح آخر معهود وهو السيوف والرماح وبتآزر السلاحين ارتفعت رايات النصر فى (عمورية وعكة) ، و هذا لم يكن فى حسبان جند أعداء الإسلام .

٣ - وقول شهاب الدين الحلبي :

يابوم عكا لقد أنسيت ماسبقت به الفتوح وما قد خط فى الكتب

لم يبلغ النطق حد الشكر منك فما عسى يقوم به ذو الشعر والخطب

مقتبسا من أبي تمام قوله :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

يابوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب(٢)

(١) السمر : الرماح ، واحدها : أسمر . والقضب : السيوف ، واحدها قضيب .

(٢) الحفل : جمع حافل ، وأصله الضرع الملىء باللبن ، وهو هنا مستعار للمنى وهى جمع الأمنية - بضم فسكون - وهى مايتمناه الإنسان . والحلب - بفتح الحاء واللام جميعا - مايحلب من اللبن .

فشهاب الدين الحلبي يرى أن فتح (عكة) أنسى ذكره الفتوح السابقة عليه ، ولن يفيه حقه ناطق بفم (شاعرا أوخطيبا) بقوله (فا عسى) وهذا ما عناه أبو تمام ، وإن كان سمى فتح عمورية بـ (فتح الفتوح) واستبعد أن يحيط بجلاله ناظم أو ناثر فى قوله (تعالى) .

وكلا الشاعرين جد حريص على إيراد اسم الوقعة تلذذا بذكرها حيث قال أبو تمام :

(يام وقعة عمورية) .

وقال شهاب الدين الحلبى :

(يا يوم عكة) .

ولا تثريب عليهما ؛ فالنفس تحفظ فى ذاكرتها الأيام المفرحة ، وتلهج الألسنة بها ، ولاعجب فازلنا حتى يومنا هذا تنشرح صدرا عند ذكر يوم بدر ويوم الفتح وغيرهما من الأيام الخالدة فى تاريخ المسلمين(١) .

٤ ــ وأكثر من ذلك تشابها بين الشاعرين حديث شهاب الدين الحلبى عن (صور وعكة) مقتفيا أثر أبى تمام فى حديثه عن (أنقرة وعمورية) فهذه المدن قد أصليت بنار الصليبين قديما وحديثا ففرج الله عنها بالفتح على أيدى المعتصم والأشرف خليل قلاوون .

قال شهاب الدين محمود الحلبى فى معرض حديثه مادحا السلطان الأشرف خليل :

وتمت النعمة العظمى وقد كملت ... بفتح صور بلا حصر ولا نصب

أختان فى أن كلا منهما جمعت ... صليبة الكفر لا أختان فى النسب

---

(١) مثل يوم حطين وفيه انتصر صلاح الدين الأيوبى على الصليبين وعين جالوت وفيه انتصر قطز على التتار ومايوم العاشر من رمضان منا ببعيد .

لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

مقتبسا من أبي تمام قوله عن عمورية وأنقرة :

جرى لهـــا الفأل نحسا يوم أنقرة

إذ غودرت وحشة الساحات الرحب(١)

لما رأت أختها بالأمس قد خربت

كان الخراب لها أعدى من الجرب(٢)

فشهاب الدين الحلبي قد أخذ البيت .

لمارأت أختها ... (نفسه)

من أبي تمام . ولا أدل على ذلك بعد هذه الأدلة من تأييد الرأى القائل بأن شهاب الدين محمود الحلبي قد عارض بهذه البائية بائية أبي تمام :

حول قصيدة شهاب الدين الحلبي

تبدو براعة الاستهلال حين يفتتح الشاعر بائيته بحمد الله تعالى تيمنا به فهو منزل النصر من عنده « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »(٣). وتلك سمة الشاكرين لله أنعمه حيث يقول :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي

وهذا ينبىء عن نزعة إسلامية كامنة فى نفس الشاعر . فالحمد لله دل على تحقيق مطلب عزيز المنال وهو عزة المسلمين وذلة أهل الصليب .

---

(١) الضمير هنا لعمورية .

(٢) راجع بائية أبي تمام ج ١ ص ١٥-٢٩ ديوان أبي تمام- شرح محمد محي الدين عبد الحميد ط المدنى .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٠ .

وفى البيت أسرار بلاغية ، إذ تتجلى روعة الطباق بين العـــزة للمسلمين (تركا وعربا) ، والذلة لدولة الصلب .

ولاغرو فالترك كانوا الجند المدافعين عن الإسلام الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ذروة سنام العرب . وفى هذا البيت لطيفة إسلامية ، بل هى من أسس الإسلام الذى دعا إلى اجتثاث جذور العصبية من المسلمين عربا وعجما . ومن الملحوظ أنه جعل الذلة لدولة الصلب ، لا المسيحية ، فالمسيحية دين سماوى لا يوصم بالذلة .

٢ — ثم يبين الشاعر أن الآمال كانت متعلقة بهذا الفتح وآملة فى يوم قريب يتحقق فيه ، لكن جبروت عدوهم جعله ضربا من المحال ، حتى فى عالم الأحلام والرؤى - حيث يقول :

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت
رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب

٣ — وبعد القنوط يجىء نصر الله والفتح . كيف لا ؟

وقد هدت قواعدها البحرية[1] التى كثيرا ما روعت المسلمين ، وكانت مصدر إزعاجهم والاغارة عليهم ، الأمر الذى جعل الصليبيين لا يؤملون فى قوتهم التى ترابط فى البر . فهم الخاسرون برا وبحر .

وكلمة (الشرك) كلمة وجيهة لو أدرك الغزاة الأوربيون مغزاها ، لأنهم يدعون ظلما وزورا أنهم دعاة سلام وحماة للمسيحية من وحشية المسلمين فى بلاد الشرق ، ولولا نصرة إخوانهم فى العقيدة ماوطئت أقدامهم هذه الديار ، لأنهم أهل دين سماوى يدعو إلى التسامح ونبـــذ العداء ناسين أو متناسين

---

(١) قواعد عـكة .

(التثليث) الذى يدينون به فعدوا به كافرين كما وصفهم بذلك رب العالمين ، حيث يقول - سبحانه - :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(١) .

هذا ما أراده الشاعر توبيخا لهم - حيث يقول :

مابعد عكا وقد هدت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب(٢)

أى كأن (عكة) كانت نهاية المطاف بالنسبة للغزاه الأوربيين فليس لهم لدى أرض المسلمين حاجة بعد أن منوا بالخسران المبين .

وكلمة (عند) توحى العندية هنا أن (البر أرض المسلمين كانت بمثابة الوديعة لديهم من قبل الغزاة لكثرة غاراتهم ، ذلك ماتدل عليه كلمة (للشرك) فاللام دالة على الملك . أما وقد فتحت عكة فقد أضحت آمالهم سرابا وديار الإسلام منهم يبابا .

٤ - ولمكانة عكة يصفها الشاعر بأنها عقيلة(٣) لأصالتها وعزتها حين تأبت على الغزاة تأبي العذراء فى خدرها على الطامع اللئيم بعد أن رزحت تحت نيرهم حينا من الدهر ! حتى كادت نفوس المسلمين تذهب عليها حسرات وهى ترسف فى الأصفاد !

فهى وإن عمرت بالغزاة دهرا كئيبا قد خربت بحرا وبرا ، وأضحت

---

(١) سورة المائدة آية ٧٣ .

(٢) الأرب : الحاجة والمطلب .

(٣) العقيلة من النساء : الكريمة المخدرة ، ثم استعمل فى الكريم من كل شىء من الذوات والمعانى ومنه عقائل الكلام ، وعقائل البحر : دررها ، واحدته عقيلة ، وعقائل الإنسان كرائم ماله - راجع حـ ٤ ص ٣٠٩٩ مادة عقل لسان العرب ط دار المعارف .

الإسلام حصنا ، ثم هام القوم على وجوههم مولين الأدبار ذلك ما تضمنه معنى البيتين التاليين :

عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها دهرا وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر مدخرت فى البحر والبر ماينحى سوى الهرب

وفى ذهاب الخطوب بالعقيلة مافيه من أسى ، وفى (شدت عليها كف مغتصب) أبلغ دليل على الهوان الذى ذاقته على أيدى المغتصب ، وشتان بين كف حانية وكف غاصبة ، ألا ما أروع التعبير عن قسوة الغزاة ؟

٥ ـ ولم يمل الشاعر من تكرار المعجزة التى تحققت يوم عكة بعد أن كانت أملا صعب المنال حيث يقول :

كانت تخيلنا آمالنا فنرى أن التفكر فيها غاية العجب

ولا ثريب على الشاعر فيما ذهب إليه من تكرار ، لأن النفس توافة إلى ذكر مايسرها ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن النفوس قد أصابها الفرط لدرجة أن الآمال كانت تسرى عنها يقظة حينا ونوما حينا آخر ، ومع ذلك لم تطمع ، بل استحيت مرة وعجبت مرة أخرى .

٦ ـ ويصور الشاعر المعركة التى دارت رحاها تصويرا دقيقا مبينا هول هـــذه الحرب التى لم يكبر للصليبيين قبل بها ، إذا لم تمنعهم حصونهم التى تحصنوا بها من جند المسلمين الذين باعوا لله أنفسهم ، غير عابئين بالسلاح الذى تدرع به عدوهم ولا بالأبراج التى تسنم ذروتها لأنهم حرصوا على الموت لتوهب لهم الحياة بقدومهم السلطان الأشرف خليل قلاوون غضبا لله ولدينه ، لا لعرض من الدنيا ، ومن هنا أيده الله وحقق على يديه الأمل الذى راود الملوك من قبله كصلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين فى غير عكة ـ حيث يقول الشاعر :

أما الحروب فكم قد أنشأت فتتا شاب الوليد بها هولا ولم تشب

سوران بر وبحر حول ساحتها ... دارا وأدناهما أنأى من العطب(١)
مصفح بصفاح حـــولها أكم ... من الرماح وأبراج من اليلب(٢)
مثل الغمائم تهدى من صواعقها ... بالنبل أضعاف ماتهدى من السحب
كأنما كل برج حـــوله فلك ... من المجانيق ترمى الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يقدمها ... غضبان لله لا الملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب

* * *

وجميل من الشاعر تعبيره عن بشاعة الحرب بشيب الوليد من هولها . وتتجلى روعة التشبيه فى جعل الرماح والدروع مثل الغمائم الممطرة نارا . فياهول هذه الحرب !

ورائع من الشاعر تصويره الأبراج بأنها محاطة بأفلاك من المجانيق ترمى الأرض بالشهب ، حيث جمع الأبراج والأفلاك والشهب ليبدى لنا صورة مفزعة لعكة قبل اقتحامها بجند الله تحت لواء الأشرف خليل ، الذين خيبوا آمال غاصبيها فاستردوها من بين أنيابهم .

٧ ـ واستطرد الشاعر فى وصف القائد لجند الإسلام المظفرين ، إذ وصفه بعلو الهمة وأنه خليق بتحقيق أمل المسلمين عربا وعجما بتطهير ديارهم من الغاصبين الذين يدعون الله تعالى بأب . وهم النصارى فى قولهم : (باسم الأب ... !) .

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »(٣) .

وفى هذا دلالة على الغيرة الدينية ، وأن هذا الملك لم يشغل بملكه ـ على عادة الملوك ـ بل كان بعيد الهمة ، حيث حقق فى بداية حكمه مالم تحققه الملوك فى الحقب . حيث يقول الشاعر :

(١) العطب : الهلاك ، أنأى : أبعد .
(٢) اليلب : الدروع .
(٣) سورة الكهف الآية ٥ .

لم ترض همته إلا الذى قعدت ... للعجز عنه ملوك العجم والعرب
ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم ... يدعون رب العلى سبحانه بأب
لم يلهه ملكه ، بل فى أوائله ... نال الذى لم تنله الناس فى الحقب

* * *

٨ ـ ووصف الشاعر استيسال جند الإسلام حينما وثبوا على « عكة » ذات الحصون المنيعة فأمست بين بحرين أحدهما مغرق والآخر محرق . فهيبات النجاة منهما ، وخاصة أن جندنا استرخصوا دماءهم وراوا النكوص على أعقابهم عارا لن تمحوه الأحقاب ، ولذا تسنموا أبراجها وجعلوا عاليها سافلها ودانت لهم مرخية عنانها بعد أن كانت متأبية إباء الخيل الجامحة :

فأصبحت وهى فى بحرين ماثلة ... مابين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم ... عار ، وراحتهم ضرب من الضرب

خاضوا إليها الردى فاشتبه الأمران واختلفا فى الحال والسبب .

تسنموها فلم يترك تسنمهم ... فى ذلك الأفق برجا غير منقلب
أنوا حماها فلم تمنع وقد وثبوا ... عنها مجانيقهم شيئا ولم يثب

* * *

وقوله (خاضوا إليها الردى والهجر) يعنى يحملوا غصص الغوى وما أشده على النفس ، ورحبوا بحتوفهم وسعوا إليها . . . ذلك ماتدل عليه كلمة (خاضوا) .

ولا شك أن فى الخوض معاناة وتضحية لينجو الخائض من الأمواج المتلاطمة التى تعوق خوضه إلى حيث يريد ، وأحسبهم قد نجوا حيث خاضوا غمار الموت وتجرعوا كئوس الفراق .

٩ — وتبدو النزعة الإسلامية لدى الشاعر فى أثناء حديثه عن وصف المعركة ، حتى لا يستطرد فى وصف القتال فحسب ، وإنما ليبين الباعث له على الحديث عن هذه الموقعة الخالدة ، التى يفخر لها التاريخ إجلالا(١) ، فيجعل من يوم (عكا) يوما يتيه على الأيام ، لأنه يوم الفتح الذى ان تفيه عبارات الثناء حقه . فهو من الأيام المشهودة لدى المسلمين ، إذ يذكر الشاعر غضب (عباد عيسى) و (جيش النصر) الذى أطلعه الله متيمنا بذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث يرى أن (المصطفى الهادى البشير) أشرف على ماقدم السلطان الأشرف من قربات ذخرا له عنده ربه ، كيف لا ؟ وقد قر المصطفى بصنيعه هذا عينا .

وأن الكعبة الغراء قد ابتهجت وهى فى أستارها .

وهذا يعنى أن الفتح فتح لكل المسلمين ، حيث قر عينا به رسولهم وابتهجت به قبلتهم .

وألمح الفرحة تغمر الشاعر حين يرى أن أنباء الفتح سارت فى الأرض سير الريح سرعة حتى عمت الكون البشائر ، فالأرض فى طرب والبحر فى رهب ، والأرض لا تطرب والبحر لا يرهب حقيقة ، لكن الخيال الذى وشى به الشاعر هذه الأبيات جعله يخال الأرض راقصة لتطهيرها من رجسهم ويخال البحر مذعورا لهول مارأى من بطولات جند الإسلام حينما جعلوا منه مقبرة لجند الصليب ، أو مهربا لمن لاذ منهم بالفرار !

يقول الشاعر :

يوم عكا لقد أنسيت ماسبقت	به الفتوح وماقد خط فى الكتب
لم يبلغ النطق حق الشكر منك فما	عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم	لله أى رضى فى ذلك الغضب

(١) أسوة بالأيام الخالدة من أيام الإسلام التى عز فيها .

وأطلع الله جيش النصر فابتدرت ... طلائع النصر بين السمر والقضب[1]
وأشرف المصطفى الهادى البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت ... بفتحة[2] الكعبة الغراء فى الحجب
وسار فى الأرض سير الريح سمعته ... فالبر فى طرب والبحر فى حرب

١٠ ـ وعاد الشاعر المتيم بنتائج هذه المعركة ليصور مشهدا آخر منها مبينا من خلاله تشبيهات رائعة البلاء الذى أبلاه جند الإسلام ضد الصليبيين، إذ يصور البيض خائضة فى بحر من الدماء ولم يبد منها إلا ساقا مختضبة بالدماء ـ وهذا دال على أن الدماء المراقة بلغت من الكثرة حدا بحيث أصبحت بحرا لجيا يخوضه الخائضون .

وصور الزرق تغوص فى زرق عيونهم كالحبال الغائصة فى الآبار لاستخراج مائها . وأن الحرب حمى وطيسها وشب أوراها حتى ذاب من حرها الحديد ، وصور الدماء تجرى بحرا إلى البحر حتى استحال لون البحر إلى لون الخمر قانيا من الدماء التى مزج بها .

وبعد أن صور البطولات الجسدية لجند الإسلام عاد ليصور البطولات النفسية لهم أيضا ، إذ أثبت أن دفاعهم واستبسالهم لم يكن الباعث عليه المغانم ، فنفوسهم تعف عن المغنم ، وتلك بطولة نادرة المثال فينبغى اتخاذها نبراسا ، وأن يكون الحق هو الوجهة يقول الشاعر :

وخاضت البيض فى بحر الدماء وما ... أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرق القنا فى زرق أعينهم ... كأنها شطن تهوى إلى قلب[3]

(١) السمر : الرماح واحدها : أسمر ، القضب : السيوف واحدها : قضيب .
(٢) وجد فى البداية والنهاية : فقر عينا لهذا الفتح وابتهجت ببشره الكعبة الغراء فى الحجب .
(٣) الشطن : الحبال ، والقلب : الآبار ، وأحدها قليب .

توقدت وهى غرقى فى دمائهم ... فزادها الطفح منها شدة اللهب
وذاب من حرها عنهم حديدهم ... فقيدتهم بها ذعراً يد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت ... حواسه فغدا كالمنزل الخرب
أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم ... فراح كالراح إذ غرقاه كالحبب(١)
تحكمت وسطت فيهم قواضبنا ... قتلا وعفت لحاويها عن السلب
كأنه وسنان الرمح يطلبه ... برج هوى ووراه كوكب الذهب

١١ — وعادت الحمية الدينية إلى الشاعر فرحاً بالنصر وفخوراً بالقائد الذى تحققت المعجزة على يديه ، على حين استعصت على الفارس المغوار صلاح الدين الأيوبى ، لكن الشاعر وهو يفاخر بفارس عكة : الأشرف خليل ويقيه به على الملوك لم يبخس صلاح الدين حقه ولم ينقص من قدره ، بل جعل انتصار الإشرف خليل فى عكة نتيجة لما قدمه صلاح الدين وأخذا بثأره منهم ، فالشاعر يعرف أقدار الرجال ، ويمنح الشاعر إلى المبالغة فى شجاعة الأشرف خليل حين يذكر على لسان (عكة) أنها دعت وهى أسيرة أعزة الملوك فلم تظفر بمن يغيثها سواه .

ومن حسن التوفيق أن الأشرف خليل كان يلقب بصلاح الدين، ولهذا التوافق استوحى الشاعر معانى الشجاعة والبطولة التى جمعت بين القائدين العظيمين .

ذلك ماتتضمنه الأبيات التالية :

بشراك ياملك الدنيا لقد شرفت ... بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شىء تلاقيه على لغب(٢)
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها ... مدت إليك نواصيها بلا نصب

(١) الحبب : الفقاقيع التى تعلو وجه الخمر عند مزجها بالماء .
(٢) اللغب : التعب والنصب والاعياء .

كم دعت وهى فى أسر العدا زمنا صيد[1] الملوك فلم تسمع ولم تجب
أتيتها ياصلاح الدين معتقدا بأن داعى صلاح الدين لم يخب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحرا من الذهب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غصبت
منه لسر طواه الله فى اللقب[2]

وفى هذا لطيفة تروى : أن صلاح الدين الأيوبى[3] كان قد وقف على كتاب ذكر فيه أن السلطان صلاح الدين يفتتح عكا ويخربها . فرجا أن يكون هو فلم يظفر[4] .

١٢ - ولحسن عاقبة المعركة لم يفتأ الشاعر يذكر البطولات التى برزت والتى أقضت مضاجع العدو . فصور السيوف تغنى طربا وهى تحز الرقاب ، والأبراج ترقص لعبا بعد ضرب الأعناق التى كانت تترصد من فوقها وخال الدماء التى لطخت بها الأسوار طيبا معللا بأنها استحالت طيبا لكونها دماء خبيثة .

وصور النساء الكواعب[5] بارزات يسقين شرابا غير ذى طرب كما كن يسقين من قبل خمرا تذهب بعقولهم أيام اللهو .

---

(١) الصيد : جمع أصيد ، وهو من يرفع رأسه تكبرا وتيها .

(٢) أراد باللقب (صلاح الدين) الذى كان من قبله يلقب به يوسف بن أيوب.

(٣) صلاح الدين الأيوبى القائد العظيم المولود سنة ٥٣٢ هـ بتكريت والمتوفى ٥٨٩ هـ وقائد حطين راجع جـ ١٣ : ص ٢ ، ٣ البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ط : السعادة .

(٤) راجع جـ ٨ : ص ٥٦ عصر سلاطين المماليك د/ محمد رزق سليم عن عقد الجمان للعينى المجلد (٦٨٩/٦٩٨) ورقة ٢٦ مصور شمسى بدار الكتب .

(٥) النساء الصليبيات كن بالأمس يسقين رجالهم خمرا واليوم يسقينهم ماء وهم فى غمرات الموت فشتان بين شراب وشراب .

أما اليوم فيسقون مرآ وصبابا، وفى الآخرة يسقون بماء كالمهل يشوى الوجوه ألا بئس مايشربون !

وصور الأبراج بأنها أضحت «أبالهب» لما آل إليه أمرها من لهب مستعر وأنها علقت حتى كأنها «حمالة الحطب» .

على سبيل الاقتباس من القرآن الكريم بأن «عكة» الشرك والكفر لاقت المصير الذى ينتظر «أبالهب» بسبب كفره وعناده .

يقول الشاعر مصور الدمار الذى لحق بالجيش الصليبى فى عكة :

وجئتها بجيوش كالسيول على	أمثالها بين آجام من القضب
وغنت البيض فى الأعناق فارتقصت	أبراجها لعبا منهن باللعب
وخلفت بالدم الأسوار فانقمعت	طيبا ولولا دماء الخبث لم تطب
وأبرزت كل خود كاعب فزقت	رءوسهم حين زقوها بلا طرب(١)
أضحت أبالهب تلك البروج وقد	كانت بتعليقها حمالة الحطب

١٣ — ويختتم الشاعر قصيدته البديعة بمدح قائد الفتح السلطان الأشرف والدعاء له ، والتذكرة بنعمة الله عليه ، إذ أفاء عليه بفتح (صور) توأم (عكة) فى الأسر - بلا تعب ، حيث فتحت بلا حصار .

ويطلق الشاعر لخياله العنان حين خال النار التى أوقدت فى جنبات عكة تطفىء الكرب الذى حل بصدر الدين ، يعنى بذلك انشراح المسلمين صدرا بأوبة (صور) إلى حوزة المسلمين ، يرتفع الأذان من فوق مآذنها بعد أن دقت النواقيس بها زمنا كئيبا !

---

(١) الخود : الشابة الناعمة : انظر مادة : خود ص ١٢١ أساس البلاغة للزمخشرى ط : دار الكتب : والكاعب : التى تكعب ثديها : نتأ كالكعب (برز) انظر مادة كعب ص ٣٩٤ المرجع السابق .

فزقت : الزق : السقأ وقيل : الذى تنقل فيه الخمر . انظر ج ٣ : ص ١٨٤٥ لسان العرب ط : دار المعارف .

وتصور أن خرا (عكة) الصليب كان مؤذنا بخراب أختها (صور) فأصابتها عدوى الخراب كالجرب ـ ونعمت العدوى ـ إذ زال الجرب بزوال الصليب عنهما ـ وبرئتا وعادتا ثغرين من ثغور الإسلام .

ويستطرد الشاعر مهنئا السلطان الأشرف بسعة نفوذه إذ أعطاه الله ملك المشرق والمغرب[1] ويرى الشاعر الإمل مشرقاً والسعد باسماً لسلطانه التى ابتدأ ملكه بفتح : عكة وصور . فقائد شجاع يستهل حكمه بالفتوحات واسترداد ما اغتصب من ديار الإسلام خليق بفتح بلاد الصين ، وكانت يومئذ نائية ومع ذلك رآها أدنى إلى كفيه من حلب ، ويدعو له بعلو الشأن وبقرة العين وذلك بفتوح تالية لصور وعكة .

وفى ذلك يقول الشاعر :

وتمت النعمة العظمى وقد كملت ... بفتح صور بلا حصر ولا نصب
وصارت النار فى أرجائها وعلت ... فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
أختان فى أن كلا منهما جمعت ... صليبة الكفر لا أختان فى النسب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب
الله أعطاك ملك البحر إذ جمعت ... لك السعادة ملك الشرق والغرب
من كان مبدأه عكا وصور معا ... فالصين أدنى إلى كفيه من حلب
ملا بك الملك حتى إن قبتـــه ... على البرايا غدت ممدودة الطنب[2]
فلا برحت قرير العين مبتهجا ... بكل فتح مبين المنح مرتقب[3]

---

(١) يعنى بذلك الشام ومصر .

(٢) الطنب: حبل الخباء والسرادق والجمع أطناب وطنية ـ راجع جـ٤ : ص ٢٧٠٨ لسان العرب .

(٣) راجع القصيدة جـ ١ : ص ٣٠٥ ـ ٣٠٨ فوات الوفيات لابن شاكر تحقيق محي الدين ـ ط : النهضة وراجع جـ ١٣ : ص ٣٢٣ البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ط : السعادة .

وبعد : فما أروع هذه البائية التي أبدع فيها الشهاب الحلبي ، مستمداً إبداعه من عاطفة صادقة جعلته ينقل إلينا صورة لهذه الوقعة تنبيء عن شاعرية ثرة قد أمدها الخيال الخصب بقدرة فائقة على إبراز هذا الفتح في صور مجسدة للبطولات التي أبلت فيها بلاء حسنا ، وقد أجاد في تصويره لتهاوي القلاع وتداعي الحصون وفرار الجيوش الباغية أمام جيش المسلمين بقيادة السلطان الأشرف - وقد حالفه التوفيق في تصوير فرحة المسلمين بالنصر حتى خال المصطفى عليه الصلاة والسلام مشرفا على المعركة وكذا حالف التوفيق الجيش المملوكي . وبدت روعته في تصويره الكعبة مبتهجة وكأنها في أستارها منفرجة الأسارير ، وما يتصور من الكعبة ذلك الفرح حقيقة لكن الخيال الشعري يرينا المستحيل ممكنا والغائب حاضرا .

وأحسب الشاعر بتصويره الدقيق لفتح عكة قد أعطانا صورة خالدة يعجز عنها (المصور (الفوتوغرافي) ، إذ لو كان على عهده مصورون وسارعوا إلى تصويرها (تغطيتها) لذهب بهاء هذه الصور لطول العهد بها ، أما الشاعر الشهاب الحلبي فهو بما منحه الله من قريحة صور بها (فتح عكة) فقد أورثنا صورة لن يبلها الدهر . وبالله التوفيق ؟

مراجع البحث

القرآن الكريم :

١ ـ أساس البلاغة للزمخشري : ط ـ دار الكتب .

٢ ـ البداية والنهاية فى التاريخ : لابن كثير ط ـ السعادة .

٣ ـ الدولة الأموية والعباسية وحضارتهما : د/ محمد الطيب النجار بالمشاركة ط ـ الجامعة الأزهرية .

٤ ـ ديوان أبى تمام : شرح محمد محيى الدين عبد الحميد . ط ـ المدنى .

٥ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : للمقريزى ط ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ م .

٦ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلى : ط ـ بيروت .

٧ ـ عصر سلاطين المماليك : ونتاجه العلمى والأدبى : د/ محمود رزق سليم . ط ـ الآداب .

٨ ـ فتوح البلدان للبلاذرى : نشر د/ صلاح المنجد . ط ـ لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٧ م .

٩ ـ فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبى . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ـ النهضة المصرية سنة ١٩٥١ م .

١٠ ـ القاموس المحيط للفيروزبادى ط ـ بيروت .

١١ ـ لسان العرب : لابن منظور ط ـ دار المعارف .

١٢ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموى ط ـ بيروت سنة ١٩٥٧ م .

١٣ ـ مهذب الأغانى : (تهذيب الخضرى) ط ـ مصر .

١٤ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : لابن تغرى بردى ط ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .